

تفسير البغوي

251 - { فهزموهم بإذن الله } أي بعلم الله تعالى { وقتل داود جالوت } وصفة قتله : قال أهل التفسير : عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيشا أبو داود في ثلاثة عشر ابنا له وكان أصغرهم وكان يرمي بالقذافة فقال لأبيه يوما يا أبتاباه ما أرمي بقذافتي شيئا إلا صرعته فقال : أبشر يا بني فإن الله جعل رزقك في قذافتك ثم أبتاباه مرة أخرى فقال : يا أبتاباه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسدًا رابضا فركبته فأخذت بأذنيه فلم يهجمي فقال : أبشر يا بني فإن هذا خير يريده الله بك ثم أبتاباه يوما آخر فقال : يا أبتاباه إنني لأمشي بين الجبال فأسبح مما يبقى جبل إلا سبح معى فقال : أبشر يا بني فإن هذا خير أعطاكم الله تعالى فأرسل جالوت إلى طالوت أن أبرز إلي أو أبرز إلى من يقاتلي فإنه قتلني فلهم ملكي وإن قتلتني فلي ملككم فشق ذلك على طالوت فنادى في عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتي وناصيته ملكي فهاب الناس جالوت فلم يجبه أحد فسأل طالوت نبيهم أن يدعوه الله تعالى فدعا الله في ذلك فأتى بقرن فيه دهن القدس وتنور من حديد فقيل إن صاحبكم الذي يقتل جالوت هو الذي يوضع هذا القرن على رأسه فيغلي الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسفل على وجهه ويكون على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت بني إسرائيل فحربهم فلم يوافقه منهم أحد فأوحى الله إلى نبيهم أن في ولد إيشا من يقتل الله به جالوت فدعا طالوت إيشا فقال : اعرض علي بنيك فأخرج له اثنى عشر رجلاً أمثال السواري فجعل يعرضهم على القرن فلا يرى شيئاً فقال : لإيشا هل بقي لك ولد غيرهم فقال لا فقال النبي : يارب إنه زعم أن لا ولد له غيرهم فقال كذب فقال النبي : إن ربي كذبك فقال : صدق الله يانبي الله إن لي ابنا صغيراً يقال له داود استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وقارته (فخلفته) في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكذا وكان داود رجلاً قصيراً مسقاً ما مصفاراً أزرق أمعر فدعاه طالوت ويقال : بل خرج طالوت إليه فوجد الوادي قد سال بينه وبين الزيربة التي كان يريح إليها فوجده يحمل شاتين يحيز بهما السبيل ولا يخوض بهما الماء فلما رأه قال : هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم فدعاه ووضع القرن على رأسه ففاض فقال طالوت : هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي قال : نعم قال : وهل آنست من نفسك شيئاً تتقوى به على قتله ؟ قال : نعم أنا أرعى فيجئ الأسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاه فأقوم إليه فأفتح لحييه عنها وأضرقها إلى قفاه فرده إلى عسكره فمر داود عليه السلام في طريقه بحجر آخر فقال : احملني فإني حجر موسى الذي قتل بي ملك كذا فحمله في مخلاته ثم مر بحجر آخر فقال : احملني فإني حجر الذي تقتل بي جالوت فوضعه في مخلاته فلما تصافوا للقتال

وبرز جالوت وسأل المبارزة انتدب له داود فأعطاه طالوت فرسا ودرعا وسلاحا فلبس السلاح وركب الفرس وسار قريبا ثم انصرف إلى الملك فقال : من حوله جن الغلام فجاء فوق على الملك فقال : ما شأنك ؟ فقال : إن إلهي إن لم ينصرني لم يغرنني هذا السلاح شيئا فدعوني أقاتل كما أريد قال : فاقع ما شئت قال : نعم فأخذ داود مخلاته فتقلدتها وأخذ المقلع ومضى نحو جالوت وكان جالوت من أشد الرجال وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة فيها ثلثمائة رطل حديد فلما نظر إلى داود ألقى في قلبه الرعب فقال له : أنت تبرز إلى ؟ قال : نعم .

وكان جالوت على فرس أبلغ عليه السلاح التام قال : فأتيتني بالمقلع والحجر كما يؤتى الكلب ؟ قال : نعم أنت شر من الكلب قال لاجرم لأقسمن لحمك بين سبع الأرض وطير السماء قال داود : أو يقسم الله لحمك فقال داود : باسم الله إبراهيم وأخرج حيرا ثم أخرج الآخر وقال : باسم الله إسحاق ووضعه في مقلاعه ثم أخرج الثالث وقال : باسم الله يعقوب ووضعه في مقلاعه فصارت كلها حيرا واحدا ودور داود المقلع ورمى به فسخرا له الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة فخالط دماغه وخرج من فميه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا وهزم الله تعالى الجيش وخر جالوت قتيلا فأخذته يجره حتى ألقاه بين يدي طالوت ففرح المسلمين فرحا شديدا وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين والناس يذكرون داود فجاء داود طالوت وقال أنجز لي ما وعدتني فقال : أتريد ابنة الملك بغير صداق ؟ فقال داود : ما شرطت على صداقا وليس لي شيء فقال لا أكلفك إلا ما تطيق أنت رجل جريء وفي حيالنا أعداء لنا غلف فإذا قتلت منهم ما تئي رجل وجئتني بغلفهم زوجتك ابنته فأناهم فعل كلما قتل واحدا منهم نظم غل福特ه في خيط حتى نظم غلفهم فجاء بها إلى طالوت فألقى إليه وقال ادفع إلي امرأتي فزوجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه فمال الناس إلى داود وأحبوه وأثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر بذلك ابنة طالوت رجل يقال له ذو العينين فقالت لداود إنك مقتول في هذه الليلة قال : ومن يقتلني ؟ قالت أبي قال وهل أجرمت جرما قالت : حدثني من لا يكذب ولا عليك أن تغييب الليلة حتى ننظر مصدق ذلك فقال : لئن كان أراد الله ذلك لا أستطيع خروجا ولكن ائتي برق خمر فأنت به فوضعه في مضعه على السرير وسجاه ودخل تحت السرير فدخل طالوت نصف الليل فقال لها : أين بعلك ؟ قالت : هو نائم على السرير فضربه بالسيف ضربة فسال الخمر فلما وجد ريح الشراب قال : يرحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج .

فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئا فقال : إن رجلا طلب منه ما طلب لخلق أن لا يدعني حتى يدرك مني ثأره فاشتد حبا به وحراسه وأغلق دونه أبوابه ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون فأعمى الله سبحانه الحجبة وفتح له الأبواب فدخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهما عند رأسه وسهما عند رجليه سهما عن يمينه وسهما عن شماله ثم خرج فلما استيقظ طالوت بصر

بالسهام فعرفها فقال : يرحم الله تعالى داود هو خير مني ظفرت به فقصدت قتله وظفر بي فكف عنني ولو شاء لوضع هذا السهم في حلقي وما أنا بالذى آمنه فلما كانت القابلة أتاه ثانيا وأعمى الله الحجاب فدخل عليه وهو نائم فأخذ إبريق طالوت الذي يتوضأ منه وكوزه الذي كان يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشينا من هدب ثيابه ثم خرج وهرب وتوارى فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وطلبه أشد الطلب فلم يقدر عليه ثم إن طالوت ركب يوما فوجد داود يمشي في البرية فقال : اليوم أقتله فركض على أثره فاشتد داود وكان إذا فزع لم يدرك فدخل غارا فأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسج عليه بيتا فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال : لو كان دخل هنا لخرق بناء العنكبوت فتركه ومضى فانطلق داود وأتى الجبل مع المتعبدين فتبعد فيه فطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلا قتله وأغرى بقتل العلماء فلم يكن يقدر على عالم فيبني إسرائيل يطيق قتله إلا قتله حتى أتي بأمرأة تعلم اسم الله الأعظم فأمر خيازه بقتلها فرحمها الخياز وقال : لعنا نحتاج إلى عالم فتركها فوق في قلب طالوت التوبة وندم على ما فعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس .

وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيبكي وينادي : أنسد الله عبدا يعلم أن لي توبة إلا أخبرني بها فلما أكثر عليهم ناداه مناد من القبور يا طالوت أما ترضى أن قتلتنا حتى تؤذينا أمواتا فازداد بكاء وحزنا فرحمه الخياز فقال : مالك أيها الملك ؟ قال : هل تعلم لي في الأرض عالما أسلمه هل لي من توبة فقال الخياز : إنما مثلك مثل ملك نزل قرية عشاء فصالح الديك فتطير منه فقال : لا تتركوا في القرية ديكا إلا ذبحتموه فلما أراد أن ينام قال لأصحابه : إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلجم فقالوا له : وهل تركت ديكا نسمع صوته ؟ ولكن هل تركت عالما في الأرض ؟ فازداد حزنا وبكاء فلما رأى الخياز ذلك قال له : أرأيتك إن دللتكم على عالم لعلك أن تقتله قال : لا فتوثق عليه الخياز فأخبره أن المرأة العالمة عنده قال : انطلق بي إليها فسألها هل لي من توبة ؟ وكانت من أهل بيت يعلم الاسم الأعظم فإذا فنيت رجالهم علمت نساؤهم فلما بلغ طالوت الباب قال الخياز إنها إذا رأتك فزعت خلفه خلفه ثم دخله عليها فقال لها : ألس أعظم الناس منة عليك أنجيتك من القتل وآويتك قالت : بلى فإن لي إليك حاجة هذا طالوت يسأل هل لي من توبة ؟ قالت : لا وإن لا أعلم لطالوت توبة ولكن هل تعلمون مكان قبرنبي ؟ فانطلق بهما إلى قبر إشموميل فصلت ودعت ثم نادت يا صاح القبر فخرج إشموميل من القبر ينفض رأسه من التراب فلما نظر إليهم ثلاثة قال : ما لكم أقامتم القيامة ؟ قالت : لا ولكن طالوت يسألوك هل له من توبة ؟ قال إشموميل : يا طالوت ما فعلت بعدى ؟ قال : لم أدع من الشر إلا فعلته وجئت أطلب التوبة قال : كم لك من الولد ؟

قال عشرة رجال قال : ما أعلم لك من توبه إلا أن تتخلى من ملكك وتخرج أنت وولدك في سبيل الله ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ثم تقاتل أنت حتى آخرهم ثم رجع إشمويل إلى القبر وسقط ميتاً ورجع طالوت أحزن ما كان رهبة أن لا يتبعه ولده وقد بكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه فدخل عليه أولاده فقال لهم : أرأيتم لو دفعت إلى النار هل كنتم تفدونني ؟ قالوا : نعم نفديك بما قدرنا عليه قال : فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم قالوا : فاعرض علينا ذكر لهم القصة قالوا : وإنك لم قتول قال : نعم قالوا : فلا خير لنا في الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذي سأله فتجهز بماله ولده فتقدم ولده وكانتوا عشرة فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ثم شد هو بعدهم حتى قتل فجاء قاتله إلى داود ليبشره وقال : قتلت عدوك فقال داود : قتلت عدوك فقال داود : ما أنت بالذي تحيا بعده فضرب عنقه وكان ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة وأتى بنو إسرائيل إلى داود وأعطوه خزائن طالوت وملكته على أنفسهم .

قال الكلبي والضحاك : ملك داود بعد قتل طالوت سبع سنين ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد إلا على داود فذلك قوله تعالى : { وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكُ وَالْحِكْمَةَ } يعني : النبوة جمع الله داود بين الملك والنبوة ولم يكن من قبل بل كان الملك في سبط والحكمة هو العلم مع العمل .

قوله تعالى : { وَعَلِمَهُ مَا يَشَاءُ } قال الكلبي وغيره يعني : صنعة الدروع وكان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل إلا من عمل يده وقيل منطق الطير (وكلام الحكل) والنمل والكلام الحسن وقيل هو الزبور وقيل هو الصوت الطيب والألحان فلم يعط الله أحداً من خلقه مثل صوته وكان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يأخذ بأعناقها وتطله الطير مصيخة له ويركذ الماء (الجاري) ويسكن الريح .

وروى الضحاك عن ابن عباس رحمه الله هو أن الله تعالى أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته قوتها قوة الحديد ولو أنها لون النار وحلقها مستديرة مفصلة بالجواهر مدرسة بقضاءان المؤلئ الرطب فلا يحدث في الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فعلم داود بذلك الحدث ولا يمسها ذو عاهة إلا برى وكانت تتحاكمون إليها بعد داود عليه السلام إلى أن رفعت فمن تعدى على صاحبه وأنكر له حقاً أتى السلسلة فمن كان صادقاً مد يده إلى السلسلة فتناولها ومن كان كاذباً لم ينلها فكانت كذلك إلى أن ظهر بهم المكر والخدع فبلغنا أن بعض ملوكها أودع رجلاً جوهرة ثمينة فلما استردها أنكر فتحاكما إلى السلسلة فعمد الذي عنده الجوهرة إلى عكاره فنقرها وضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر السلسلة فقال صاحب الجوهرة : رد على الوديعة فقال صاحبه : ما أعرف لك عندي من وديعة فإن كنت صادقاً فتناول السلسلة فتناولها بيده فقيل للمنكر قم أنت فتناولها فقال لصاحب الجوهرة : خذ عكاذي هذه فحافظها حتى

أتناول السلسلة فأخذها عنده قم قام المنكر نحو السلسلة فأخذها الرجل : اللهم إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التي يدعىها علي قد وصلت إليه فقرب مني السلسلة فمد يده فتناولها فتعجب القوم وشكوا فيها فأصبحوا وقد رفعوا السلسلة .

قوله تعالى : { ولو لا دفعنا الناس بعضهم بعض } قرأ أهل المدينة ويعقوب دفاعاً بالألف هاهنا وفي سورة الحج وقرأ الآخرون بغير الألف لأننا تعالى لا يغالبه أحد وهو الدافع وحده ومن قرأ بالألف قال : قد يكون الدفاع من واحد مثل قول العرب : أحسننا عنك الدفاع قال ابن عباس ومجاهد : ولو لا دفعنا بجنود المسلمين لغلب المشركين على الأرض فقتلوا المؤمنين وخربوا المساجد والبلاد وقال سائر المفسرين : لو لا دفعنا بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار لهلكت الأرض بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر بالصالح عن الفاجر .

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله بن فنجويه أنا أبو بكر بن خرج أنا عبد الله بن أحمد بن حنبل أنا أبو حميد الحمصي أنا يحيى بن سعيد العطار أنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر Bهما قال : قال رسول الله : [إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيته من جيرانه البلاء] ثم قرأ { ولو لا دفعنا الناس بعضهم بعض } { لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين }